

أنا وأنت على الطريق
الحجاب العصري في تونس

سيدتي المستمعة،

تقليعات الحجاب العصري تزدهر في تونس... هذا هو عنوان تقرير ورد مؤخرا في إحدى الصحف العربية. فإليك سيدتي ما جاء فيه:

وصف جابر القفصي الباحث في علم الاجتماع، الأشكال الجديدة والمتنامية في ارتداء الحجاب والمرتبطة في كثير من الأحيان بالموضة والبحث عن الجمالية، بأنها "علامة على تحول طراً في علاقة المرأة بالحجاب من جهة، وبجسدها وبالأخر من جهة ثانية." وقال أيضا: إن الحجاب الجديد صياغة هيئة مغايرة تماما لما هو معهود، وعملية تصرف وإخراج جديدة للجسد تعبر أيما تعبير عن روح الشباب وموجة العصر وقيم الحرية والجمال والرشاقة وحب الحياة، وكل ما بشرت به الحداثة من معاني. فالحجاب من هذا المنظور يشكل مفارقة عجيبة لأنه من المفروض أن يكون علامة ستر وتخف وحجب المرأة عن أنظار الرجل، فإذا به يصبح علامة جلب للانتباه وأحيانا إغراء وفتنة إذا ما أضيف له ألبسة ضيقة وأدوات زينة جذابة.

ويتابع التقرير ليقول: وتشهد المدن التونسية بروز حجاب متحرر ومتعدد الألوان المبتكرة لتغطية الرأس يصفه الملاحظون بأنه "ساتر كاشف". ويقول كاتب التقرير أيضا إنه على الرغم من أن تونس هي ثاني دولة إسلامية بعد تركيا تمنع ارتداء الحجاب في المؤسسات الحكومية إلا أن هذا الزي عاد للانتشار بقوة في الأماكن العامة منذ نهاية التسعينات من القرن الماضي. ويصبح الحجاب في ظل منعه نوعا من النضال السلمي الاحتجاجي ولو بصفة غير واعية ضد ثقافة الهيمنة والإقصاء التي تمارسها الدولة.

والسؤال الآن هو: هل فقد الحجاب رمزيته الدينية وما تقتضيه من سلوك والتزام؟ يقول الباحث جابر القفصي لا، بل لأننا أمام ظاهرة من طراز جديد. ويمكن فهم تقليعات الحجاب الجديد باعتبارها خطوة في اتجاه الفردية والتمايز عما هو مسطر سابقا وفق الفقه والعادات. فهو ممارسة الحق في اختيار نمط الحياة الخاصة دون ضغوط أو إكراهات خارجية أي: هو شبه اتفاق ضمني من قبل هؤلاء الفتيات على كون اختيار شكل الحجاب ولونه وطريقة وضعه هو اختيار فردي. وكأنني بهن يثبتن أنهن إفران من إفرانات الحياة المعاصرة بإيجابياتها وسلبياتها وشكل من أشكال التفاعل من منطقتها وقيمها ومكتسباتها.

وهكذا يا سيدتي فإن همَّ الإنسان الشاغل هو: كيف يظهر أو تظهر أمام الناس والمجتمع والأسرة؟ وهل الفتاة أو السيدة تطبق تقاليد المجتمع في مظهرها الخارجي حتى ولو طبقته بطريقة فردية أي على نحو ما سمعنا من التقرير، أي لبس الحجاب العصري فتغدو مقبولة أمام الناس ولا تكون مرفوضة؟ أم على العكس؟ تظهر بمظهر غير لائق اجتماعيا؟ كل هذه أسئلة تبقى طافية على السطح كما يقولون. لأنها تبقى مرتكزة على المظهر الخارجي الذي تظهر فيه المرأة أو الفتاة ليس إلا... ويتناسى المجتمع أو التقاليد بأن الأمر هو أبعد من المظهر بكثير، أبعد من المظهر الذي يبدو فيه الإنسان للآخر، الأمر هو الداخل، أي الكيان الداخلي للإنسان هذا الذي يبين معدن الإنسان الحقيقي وليس المظهر الخارجي.

وفي هذا المنحى يخبرنا الكتاب المقدس الذي هو كلمة الله الحية عن هذا الموضوع ليقول على لسان الرسول بطرس أحد رسل المسيحية الأوائل: **ولا تكن زينتك الخارجية من صفر الشعر والتحلي بالذهب ولبس الثياب. بل إنسان القلب الخفي في العديمة الفساد زينة الروح الوديع الهادئ الذي هو قدام الله كثير الثمن.**

إن اهتم روح الله القدوس الذي هو المعلم والمرشد لنا في هذه الحياة، أن يقول أن زينة المرأة الحقيقية ليست هي زينة الخارج، بل هي زينة الداخل أي القلب. لأنه ما نفع أن تكون المرأة مزينة من الخارج، بينما داخلها مملوء خطايا؟ أو إذا ما ظهرت بمظهر محتشم أمام الناس بينما قلبها مليء بالأفكار الشريرة وغير اللائقة؟ إذن على المرأة والرجل وليس المرأة فقط أن يظهرها بمظهر لائق للناس ويكون بالحق محتشمين داخلا أيضا، فتزيّن المرأة مثلا نفسها وروحها بالوداعة والقداسة والهدوء والاحترام. هذا هو الدليل الحقيقي على خوف الله والخضوع له، ولوصاياها يا سيدتي. أليس كذلك؟ وبناء عليه، نتعلم من كلمة الله المقدسة بأن روح الإنسان ونفسه وكيانه الداخلي هو المصدر لكل مظهر خارجي وليس العكس هو الصحيح. فإذا لم نكن وقورين خائفين الله في دواخلنا، فلن نعكس الوفاق والاحتشام في مظهرنا حتى ولو تغطينا من فوق إلى أسفل. فما رأيك سيدتي؟
